وظائف الاستفهام بـ[بالهمزة، وهل] الفنية والتبليغية في الخطاب القرآني

د.قدري محمد القنوني
كلية الآداب الزاوية– جامعة الزاوية

مقدمة:

يعد القرآن الكريم المعين الذي لا ينضب في استنباط الأساليب اللغوية المختلفة، والاستفهام أحد تلك الأساليب التي تعمل على إظهار الدلالات والمعاني الكامنة في التعابير اللغوية، إلى جانب دفع القارئ أو المتكلِّم إلى التعمُّق والإكثار من طرح التساؤلات والاستفسارات بشأنها.

وفي الخطاب القرآني يأتي الاستفهام بصياغات متعدِّدة، وسياقات مختلفة، وإيحاءات متنوِّعة، كما أنَّ لكل أداة من أدواته خصائص لفظية ومعنوية، تتناغم مع كل مقام ترد فيه مع اختلاف أساليب ذاك الاستفهام. والتي عند تتبُّعها في الخطاب القرآني نجد أنَّها غالباً ما تخرج عن المعاني الحقيقية للاستفهام إلى أغراض ودلالات احمل في مضمونها أسراراً بلاغية متنوِّعة، قد يحتاج إدراكها إلى شيء من التفكير، وإعمال العقل.

أهمية البحث:

تتمثَّل أهمية هذا البحث في بيان وظائف الاستفهام التبليغية والفنية في الخطاب القرآني؛ إذ يعد الاستفهام أحد أعمدة الأساليب الإنشائية؛ بكونه لا يقوم على المبنى فحسب، بل يقوم على المعنى كذلك، إذ يجمع بين أداء المعنى و إبلاغه، وتحسين المبنى وتجميله.

فللاستفهام أهمية بالغة، يستمدها ممَّا يتضمَّنه النص القرآني من غايات وأغراض، وما يعمل على تحقيقه باتساع دلالة الخطاب من جذب انتباه المخاطبين، وتنبيه أذهانهم وتنشيط أفكارهم.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إظهار قيمة أسلوب الاستفهام في النص القرآني، والكشف عن أسراره البلاغية، والغوص في سياقاته، وتذوُّق جمال تراكيبه.

إشكالية البحث:

تكمن إشكالية هذا البحث في التساؤل الآتي:

ما وظائف الاستفهام التبليغية والفنية في سياقات الخطاب القرآني؟

وينبثق عن هذه الإشكالية تساؤلات فرعية منها:

1- كيف يأتي استعمال أدوات الاستفهام في الخطاب القرآني؟

2- ما سياقات الاستفهام في الخطاب القرآني؟

3- ما الوظائف التي يؤديها الاستفهام في الخطاب القرآني؟

منهج البحث:

إنَّ المنهج الملائم تطبيقه لدراسة هذا الموضوع هو: المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بحكم مواءمته وطبيعة هذه البحث.

هيكل البحث:

يضم هيكل البحث مقدِّمة، وجانب نظري يضم: تعريف الاستفهام لغة واصطلاحاً، وجانب تطبيقي: يضم جملة من الآيات القرآنية التي تتناول جملة من أساليب الاستفهام المتصدر بأداتي الاستفهام: (الهمزة، هل)، ثم الخاتمة.

أولاً: الجانب النظري.

1- تعريف الاستفهام:

أ- الاستفهام لغة:

الاستفهام: اسم مشتق من الجذر اللغوي (ف، ه، م) زيدت عليه الألف والسين والتاء، وهذه الحروف عندما تزاد في الفعل الثلاثي تجعله يفيد الطلب.

يقول الخليل بن أحمد: "باب الهاء والميم والفاء معهما (ف ه م)... فهمت الشيء فَهَماً وفَهَمْا: عَرَفْتُهُ وعَقَلتُهُ، وفَهَّمْتُ فلاناً وأفهمته"[1].

ويقول ابن منظور: "الفَهْمُ: معرفتك الشيء بالقلب فَهِمَه فَهْماً وفَهَماً وفَهامة عَلِمَه... وفَهِمْت الشيء عَقَلتُه وعرَفْته وفَهَّمْت فلاناً وأَفْهَمْته وتَفَهَّم الكلام فَهِمه شيئاً بعد شيء، ورجل فَهِمٌ سريع الفَهْم، ويقال فَهْمٌ وفَهَمٌ وأَفْهَمه الأَمرَ وفَهَّمه إياه جعله يَفْهَمُه واسْتَفْهَمه سأَله أَنْ يُفَهِّمَه، وقد اسْتعفْهَمَني الشيءَ فأَفْهَمْته وفَهَّمْته تفهيماً وفَهْم"[2].

يعد الاستفهام اللغوي أحد أساليب الإنشاء الطلبي، وهو ما يستلزم مطلوباً ليس حاصلاً وقت الطلب. فسؤال الفهم طلب السائل أنْ يخبره المسؤول عمَّا يسأل.

ب- الاستفهام في الاصطلاح:

يحظى الاستفهام بتعريفات كثيرة ومتنوِّعة، اشترك في وضعها عدد من علماء اللغة، وعلماء البلاغة، ومن تلك التعريفات، ما ورد على لسان الجرجاني بقوله: "هو استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن"[3]. موضِّحاً هيأة حصول تلك الصورة في الذهن قائلاً: "فإنْ كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصوُّر"[4].

ومع تسوية ابن فارس بين الاستفهام والاستخبار، وجعلهما بمعنى واحد، وهو يقول: "الاستخبار: طلب خبر ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام"[5]. بينما يفرِّق الثعالبي بينهما بقوله: "الاستخبار سابق للاستفهام، لأنَّك تستخبر فتجاب بشيء فربما فهمته، وربما لم تفهمه، فإذا سألت ثانية فأنت مستفهم"[6].

ومن النحاة من يفرِّق بين الاستفهام والسؤال، جاعلاً "الفرق بين الاستفهام والسؤال: أنَّ الاستفهام لا يكون إلا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه، وذلك أنَّ المستفهم طالب لأنْ يفهم، ويجوز أنْ يكون السائل يسأل عمَّا يعلم وعن ما لا يعلم، فالفرق بينهما ظاهر... والسؤال هو طلب الإخبار بأداته في الإفهام"[7].

ويأتي الاستفهام في ميادين البلاغة من أساليب الإنشاء أو الطلب، يقول ابن وهب: "ومن الاستفهام ما يكون سؤالًا عمَّا لا تعلمه لتعلمه، فيخص باسم الاستفهام، ومنه نا يكون سؤالاً عمَّا تعلمه ليقر لك به فيسمَّى تقريراً"[8].

وفيه يقول السكاكي: "الاستفهام كلمات موضوعة... وهذه الكلمات ثلاثة أنواع: أحدها: يختص طلب حصول التصور، وثانيها: يختص طلب حصول التصديق، وثالثها لا يختص... وأن طلب التصور مرجعه إلى تفصيل المجمل أو تفصيل المفصل بالنسبة، وإذا تأملت التصديق وجدته راجعاً إلى تفصيل المجمل أيضاً، وهو طلب تعيين الثبوت أو الانتقاء في مقام التردد"[9].

ومن تعريفاته عند المحدثين بأنَّه "طلب العلم بشيء كان مجهولاً لسائل من قبل"[10].

وانطلاقاً من دلالة الاستفهام اللغوية ينطلق بعض البلاغيين القدامى في تقسيم الاستفهام إلى استفهام حقيقي، وآخر مجازي أي (بلاغي)؛ فالحقيقي: ما طلب به السائل أنْ يعلم ما ليس عنده علم به، والاستفهام المجازي: ما تجاوز هذه الدلالة إلى دلالات أُخَرى يقتضيها الموقف والسياق وقرائن الأحوال، وأساليب الاستعمال.

من مجمل تعريفات الاستفهام في اللغة والاصطلاح يتضح أنَّ مفهوم الاستفهام قد يراد به معناه اللغوي، وهو طلب الفهم والمعرفة، وأنَّ حقيقته التركيبية تتمثَّل في تحويل تركيب إخباري إلى استفسار باستعمال أدوات خاصة.

كما قد يعدل الاستفهام معناه اللغوي (الحقيقي) وهو ما يقتضي جواباً، إلى استفهام مجازي، وهو ما تتولَّد عنه جملة من المعاني، ولا يقصد منشئه إلى طلب الإجابة، وهذا ما جعل النحاة يرون أنَّ الاستفهام في الخطاب القرآني يختلف عن الاستفهام في كلام البشر؛ لأنَّ المستفهم غير عالم، وإنَّما يتوقَّع جواباً فيفهم به، وهذا منفي في حق الله تعالى، لأنَّه لا يستفهم خلقه عن شيء، وهذا ما يدفع إلى الحكم بالمطلق بأنَّ جميع ما ورد من استفهام في الخطاب القرآني هو استفهام غير حقيقي، وأنَّ ذاك الاستفهام يخرج إلى مقاصد أخرى كثيرة ومتنوِّعة، كالتعظيم، والتقرير، والتأكيد، والتعجُّب، والتَّوبيخ، والتهكُّم... وغيرها كثير.

فالاستفهام عند البلاغيين ما يكون استفهاماً طلبياً، وهو ما يطلب به التصديق فحسب، وهو يأتي بأداة الاستفهام (هل)، أو ما يطلب به التصور فقط، وهو يأتي بأدوات الاستفهام عدا (هل)، ومنه ما يطلب به التصور أو التصديق، وهو ما يقع بأداة الاستفهام (الهمزة) فقط.

ثانياً: الجانب التطبيقي.

يتمتع الخطاب القرآني بجملة من أساليب الاستفهام – موضوع هذا البحث– وهي كثيرة ومتنوِّعة، ولا تنحصر في سورة قرآنية بعينها، وعند متابعة ما ورد في الخطاب القرآني من استفهام، يمكن رصد جملة من الأدوار التبليغية والفنية لهذا الاستفهام، التي يأتي في مقدمتها الاستفهام للربط عند حصول انتقالات مباشرة، أو انعطافات حادَّة في مجرى الخطاب، سواء من جهة المعنيين بالخطاب، أو من جهة الانتقال من محور دلالي إلى محور دلالي آخر، وفي هذا يلحظ دور الاستفهام في تخفيف حدَّة الانتقالات، وجعلها سلسة ومقبولة بما يتميَّز

به من خصائص لسانية وطاقات التأثير الفني على جذب المحاور إلى بعضها؛ لأنَّه يخفِّف الانعطاف، ويقرِّب المسافة بين المحور المنتقل منه، والمحور المنتقل إليه.

وبتأمل أساليب الاستفهام والمقامات التي وردت في الخطاب القرآني، وما أفادته من وظائف فنية وتبليغية، يستعرض البحث جملة من الآيات القرآنية المتضمِّنة ألواناً من الاستفهام القرآني، والتي منها على سبيل المثال لا الحصر، الاستفهام الوارد في سورة الفجر: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[11] إذ يلحظ قيمة الاستفهام في الآية الكريمة بأداة الاستفهام (هل). إظهاراً وتقريراً لفخامة الأشياء المقسم بها، وأنَّها مستحقة أنَّ يقسم بها.

ومن الخصائص الأسلوبية في السياق القرآني ما يلحظ من اقتران حسن التخلُّص بالتذيل في آن واحد معاً، وهو إيذان باختتام محور دلالي، والانتقال منه إلى محور دلالي آخر، أو تمهيد له، فالقسم في الآيات الأولى من سورة الفجر، يلفت النظر إلى مسائل كونية ذات امتداد زمني، وذلك بتكرار القسم، سواء ذكرت أداة القسم أو قدِّرت عطفاً على القسم الأول، وهو ما يضع المتلقِّي في حالة نفسية انفعالية خاصة، وهنا يبرز الاستفهام ليسد مسد الجواب، وتوجيه الشحنة الانفعالية لدى القارئ مباشرة إلى استعمال العقل.

وممَّا لا شك فيه أنَّ استعمال القسم في هذه الآيات قد جاء لتصعيد الحالة النفسية لدى المتلقِّي، في حين تم استخدام الاستفهام لتصعيد الحالة العقلية، مع ملاحظة الارتباط الوثيق بين الطرفين؛ لأنَّ الأول يعزِّز مسائل كونية تتصل مباشرة بالطبيعة، وتتطلَّب تأملاً من نوع خاص، بينما يمثِّل المحور الثاني مسائل حياتية تتصل بأحداث حصلت في تاريخ الإنسان، كما ورد في قصة قوم عاد، وهذا يتطلَّب تأملاً نوعيّاً يختلف عن السابق، وهنا نلحظ التباعد الواضح بين المحورين، ففي مثل هذا السياق نجد أداة الاستفهام (هل) وما دخلت عليه لا تكفي لتأمين سلاسة الانتقال بين المحورين، ولذا جاء الاستفهام بالهمزة ليخفف حدَّة الانعطاف المطلوب، وفي هذه الحالة نحتاج إلى موازنة حالة الانعطاف هذه، بحالة أخرى لندرك أهمية تكرار الاستفهام في هذه السورة بالذات بين محورين دلاليين، وهو ما ورد في قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾[12]، وقد تكرر الواو في صدر السورة ثلاث مرات، وهي تفيد القسم.

فالانعطاف بين المحوريين في سورة النازعات ليس بالحدَّة التي عليها في سورة الفجر؛ لأنَّ المحور الدلالي في السورة السابقة جاء مشتركاً، وهو يخص حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، إذ تشكِّل القيامة والبعث والحساب القضية الرئيسة في رسالة موسى –عليه السلام– وفي كافة الرسالات السماوية جميعاً، وأنَّ المحوريين يشتركان في الإنكار والتعنُّت والتكذيب، تكذيب الكفار بالبعث، وتكذيب فرعون لموسى، فالانعطاف ليس على درجة حادة بين المحوريين، ولذا لم يتكرَّر الاستفهام وتم الاكتفاء بـ(هل)، والجملة التي دخلت عليها للربط بين المحوريين الدلاليين، ووجودها كان أمراً ضرورياً ليحدث الانتقال بهذه السلاسة.

قد يخرج الاستفهام في عمومه عن معناه الأصلي إلى معانٍ أُخرى تُفهم من سياق الحديث، ومن الشواهد القرآنية الدالة على ذلك، الاستفهام بـ(هل) في الآية القرآنية ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾[13]، أي هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أنْ يؤتى في مقابلته بفعل حسن، وإنْ كان الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو، بل الحسن هو ما يستحسنه الله تعالى، فالفاسق ربما يكون الفسق في نظره حسناً، ولكنَّه ليس بحسن، بل الحسن ما طلبه الله منه، كذلك الحسن من الله هو كل ما يأتي به ممَّا يطلبه العبد، كما أتى العبد بما يطلبه الله تعالى منه، جاء الاستفهام بهل في هذه الآية الكريمة استفهاماً تقريرياً، ليفيد حصر مجازاة الإحسان في أنَّها إحسان، إخباراً عن كونه الجزاء الحقَّ، وبمقتضى الحكمة والعدل.

و الاستفهام في الآية الكريمة :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[14]. وفيه يخاطب الله تعالى الذين آمنوا بصيغة الاستفهام، أي هل أدلكم على العمل الذي ينجيكم يوم القيامة من عذاب أليم، والاستفهام مستعمل في العَرض مجازاً؛ لأنَّ العارض قد يسأل المعروضَ عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض، وقد جاء هذا العرض كناية عن التشويق والحث والإغراء إلى الأمر المعروض، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة.

وفي الآية الكريمة ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾[15]، وهي تتحدث عن حال الظالمين يوم القيامة، فيقولون لربهم: هل لنا من سبيل

إلى الرجوع إلى الدنيا؛ لنعمل بطاعتك، حتى لا نقع في هذا العذاب؟ وقد جاء الاستفهام بحرف(هل)، وهو استفهام إنكاري في معنى النفي، أي لا سبيل للرجوع إلى الحياة الدنيا.

وقد تتلاحق الاستفهامات في كثير من آيات القرآن الكريم، ويكون لها دور الربط بين محورين وتأكيده، ومن الشواهد القرآنية الدالة على ذلك الاستفهامات الواردة في سورة العلق: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾[16]. تكرَّر الاستفهام في الآيات السابقة بالهمزة مع الفعل رأى (أرأيت) من دون (هل) أو أية أداة استفهامية أخرى، ومن المعلوم أنَّ تكرار الأداة نفسها ليس في وزن تكرار الاستفهام بأدوات متعدِّدة، فالاستفهامات في الآيات الثلاثة الأولى تتكرَّر مع فعل الرؤية، بينما الاستفهام الرابع ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ورد معه مشتق العلم، وهو يزيد الترابط واللحمة بين المحورين، وهو ما يشبه عند البلاغيين برد الصدر عن العجز.

إذ يمثِّل المحور الدلالي الأول في هذه الآيات موقف من الرسالة يتضمَّن التكذيب والاعتراض، وفي القانون الإلهي يكون الحساب على قدر الأعمال في الدنيا، وبما يشاء الله –سبحانه وتعالى– ويمثِّل المحور الأخير الحساب والجزاء والثواب، فالغرض من تكرار الاستفهام ليس للتباعد بين المحورين، وإنَّما لتأكيد اللحمة بينهما.

ومثل هذا الاستفهام ما ورد في سورة البلد ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[17]. بأنْ تكرَّر الاستفهام بالهمزة في هذه الآيات مع الفعل يحسب مرتين، وأنَّ المحور الدلالي في الآيات هو خلق الإنسان، مع انتقال الخطاب من القسم إلى الاستفهام؛ ليحد من الانعطاف بين المحورين، مع مجيء استفهام آخر (أَلَمْ نَجْعَلْ) وهو الانتقال من ما يحسب الإنسان إلى إقامة الدليل على أنَّ خلقه لم يكن شيئاً عند الله، والدليل الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وفي هذا كله إقامة الحجة بالبرهان واليقين، فمجيء الاستفهام الثالث للربط بين المحورين، ولتأكيد ما جاء في المحور السابق، فالاستفهام جاء هناء للموازنة بين المحورين، وهذا عندما يكون السياق للموازنة والتدبُّر والتأمُّل، ويحتاج إلى استخدام العقل، وبخاصة للتهيئة العقلية، وهذا يحدث عندما يتحد الاستفهام بمشتق الرؤية،

كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[18]، وقوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[19]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[20]، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾[21]، وقوله تعالى في سورة الفيل:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[22].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[23]، فمشتقات الرؤية والنظر تجعل المتلقِّي في قلب الحدث، وكالشاهد العيان، وهذا يدل على أنَّ التهيئة التي جاءت بطريق الاستفهام كانت لتنشيط الذهن واستقبال الحدث، فاستخدام العقل يكون عن طريق أحد الحواس(السمع، الرؤية، النظر).

إنَّ لكل مشتق من المشتقات الثلاثة وزنه الخاص، وعلاقته المحدَّدة بالعقل، فاستخدام مشتق الرؤية يجعل المتلقِّي في قلب الحدث، ومشتق النظر يجعله قريباً من الحدث يراقب الأشياء، أمَّا السمع فأنَّه يجعل المتلقِّي في مسافة أبعد، ولكنَّه يميّز كل شيء، وبدقة متناهية.

وبشأن تكرر الاستفهامات عندما يكون الغرض منها الأخبار بحقيقة علمية، أو مسألة إنسانية، فحينها يأتي فعل القول ليكون الحوار قوياً، كما جاء في سورة يونس﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[24]، فالمحور الدلالي جاء بالضغط على مشتقات الهداية والحق، لأنَّها تمثِّل مركز الدلالة المركزية في موضوع الحوار المراد الخوض فيه.

يرد الاستفهام بغرض التهيئة عندما يكون السياق سياق موازنة وتدبُّر وتأمُّل، ويحتاج إلى استخدام العقل، وباختصار فالاستفهام يستخدم للتهيئة العقلية، والشرط والقسم يستخدمان في السياقات التي تتطلَّب تهيئة نفسية لاستقبال مواقف الرهبة أو العجز أو الخوف، أو

لتفحيم الحدث بعدهما، وذلك في حدود التهيئة، أمَّا الاستفهام فهو زيادة على ذلك يستخدم للتهيئة العقلية، بمعنى أنَّ السياق بعد الاستفهام سيكون سياق تأمل تدبُّر وموازنة أو محاجة وجدل.

ومن الخصائص المميَّزة لطبيعة التهيئة العقلية، والتي يناسبها الاستفهام، انعدام التكرار والاقتصاد في العبارة، لأنَّ العقل حاضر، وهو سريع الانتباه، وهي من الخصائص اللسانية المميَّزة، حيث التهيئة العقلية في السياق القرآني ترد باستفهام واحد، كما جاء في سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[25] إذ حمِّل المُخاطب على الإقرار بما يعرفه، وفي سورة الماعون﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾[26] يرى ابن عاشور أن الاستفهام في هذه الآية "مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالجزاء، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع، فالتعجيب من تكذيبهم بالدين وما تفرَّع عليه من دَعّ اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين، وقد صيغ هذا التعجيب في نظم مشوِّق؛ لأنَّ الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول، يذهب بذهن السامع مذاهب شتَّى، لأنَّ التكذيب بالدين شائع فيهم، فلا يكون مثاراً للتعجب، فيترقَّب السامع ماذا يَرِد بعده"[27].

وفي الآية الكريمة:﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[28] استخدم الاستفهام في التهيئة وه استفهام مكثَّف ومكتنز بالدلالة، يظهر ذلك عند تفكيك جملة التهيئة الاستفهامية، فهي تتضمَّن بعداً تصويرياً لا يخلو من الصعوبة، ويحتاج إلى ثقافة متطوِّرة لاستيعابه، فهذا الاستفهام تضمَّن بعداً تجريدياً يصعب تصوره بالطريقة الاعتيادية، لأنَّه ليس من المألوف، ولا ينتمي إلى المظاهر الاعتيادية في الحياة.

وفي الآية الكريمة:﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[29]، تم الاستفهام بالأداة (هل) وهو استفهام يتضمَّن بعداً تصويرياً يحتاج إلى كدٍ للعقل في تصوره.

ومما ينفرد به الخطاب القرآني أنَّه يستخدم الأداة المناسبة للتهيئة العقلية أو النفسية، وذلك باستخدام الحاسة المناسبة للحدث، ويحمِّلها مشتقاً بعينه، كما ورد في الآية الكريمة:﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾[30] وفي الآية الكريمة:﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾[31] فاستعمال مشتق الرؤية هو نوع من التوجيه الذهني لمساعدة القارئ أو السامع

على إدراك الحدث وتصوره بكيفية مناسبة، ومثله كذلك الاستفهام في الآية الكريمة:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾[32]، فتكرار الأداة هنا جاء لتأكيد اللحمة بين الآيتين.

فالانعطاف بين المحورين لم يكن بنفس الحدة التي عليها في سورة الفجر، وهذا يرجع إلى أن المحور الدلالي مشترك ويخص الإنسان في الدنيا والآخرة ، وتشكل قضية البعث والحساب والقيامة، التي تحدثت عنه الآيات القضية الرئيسة في رسالة موسى عليه السلام، بل في الرسالات السماوية جميعاً، وإن المحوريين يشتركان في الإنكار والتعنُّت والتكذيب، تكذيب الكفرة بالبعث، وتكذيب فرعون لموسى عليه السلام، فالمضمون الدلالي بين المحوريين ليس على درجة عالية من الانعطاف، لذلك لم يتكرر الاستفهام، وتم الاكتفاء بهل، واستعمل الاستفهام على أنَّه رابط بين المحوريين، لكن وجوده كان أمراً ضرورياً.

أمّا التهيئة النفسية فهي تتطلَّب مساحة أوسع في العبارة، وتقبل تكرار الشرط والقسم والعطف عليها وشيئاً من التدرُّج، وعلى سبيل المثال نتأمل قوله تعالى:﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾[33]. وقوله تعالى:﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[34]، فالآيات المتقدمة تتضمَّن مظاهر مألوفة بذكرها عند الإنسان، وترقى بذكرها على مثل هذا النحو من الترتيب بالحالة النفسية للمتلقي من درجة إلى أخرى، إلى أنْ يتشبَع سياق التهيئة ويصير المتلقِّي جاهزاً لاستقبال الخطاب في حالة مناسبة.

وقد يسكت القرآن الكريم عن أحداث ليس "تقليلاً من شأنها، أو لأنَّها ممَّا يمكن أنْ يفطن إليها القارئ وحده بكل سهولة، أو لأنَّها لا تدخل بصفة أساسية في إقامة المعنى الكبير والدلالة، ويعد ذكرها فضلة وتفصيلاً، وعلى نقيض ما نجد تراكمه في الصراع القصصي البشري الدارج في القصص التجاري والبوليسي الهابط الذي يقول كل شيء"[35].

لقد سبقت الإشارة إلى اكتناز الجملة الاستفهامية وثرائها، كما سبقت الإشارة إلى قيام الاستفهام بدور الربط بين المحاور الدلالية، وعلى ذلك فوظيفة الاستفهام في مجال الفجوة مزدوجة، فهو يعمل من جهة على سد الفجوات الناتجة عن الانعطافات الحادة والانتقالات

السريعة بين المحاور الدلالية، ويعمل من جهة أخرى على فتح فجوات في الخطاب بحسب ما يقتضيه السياق. و إنَّ من أهم الوظائف الفنية للفجوة ما يلي:

– الفجوة الفنية تختلف عن الفجوة اللسانية، لأن الفجوة الفنية عمل فني مقصود، له غايات جمالية، فهي ليست في حكم حذف الإسناد، أو ما هو معلوم لدلالة السياق عليه بالضرورة، كحذف المبتدأ عند تقدم ذكره، أو حذف الفاعل، أو حذف العامل بعد العطف، أو غير ذلك مما يقتضيه نظام اللغة.

– تقوم الفجوة الفنية بوظيفة مهمة وهي جعل القارئ شريكاً في بناء أجزاء الدلالة من خلال تصوره التي لا ترد في المساحة اللسانية للخطاب، لأن هناك أحداثاً يصعب تصورها في مدونة النص، فليس هناك من سبيل سواء تركها للتصور الذهني الذي يستطيع أن ينقش تفاصيلها بدقة أكثر من قدرة المدونة اللسانية.

– الفجوة الفنية وسيلة من وسائل التوفيق بين منطق النظام اللغوي والنظام العقلي، لأن المدونة مهما اتسعت فهي محدودة القدرة على الاستيعاب، وكثرة التفاصيل تثقل كاهل المدونة، ويجعلها مملة فتقوم الفجوة باختصار التفاصيل بطريقة تريح المدونة.

إنَّ وظيفة التصوير هو تقريب الحدث من ذهن المتلقِّي في العادة، ولكنّه لا يستطيع أنْ يحلّق في عالم الغيبيات، ولكنَّه في السياق القرآني يأتي في صورة تجعله قريباً من الذهن، بحيث تصبح ثقافة قرآنية تجعلنا قادرين على تصور الأحداث قبل نقطة البداية التي انطلقت من السورة في الحديث، أو النهاية التي انتهت إليها، فعلى سبيل المثال في الاستفهام في الآية الكريمة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[36] نستطيع أنْ نفهم أحداثاً تقع قبل الغاشية مقترنة بالساعة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[37] فالتكوير يقع قبل الغاشية نفسها، لأنَّ تكوُّر الشمس هو جمع ضوءها، وقيل اضمحلت وذهبت، وتكوَّر الليل والنهار أنْ يلحق أحدهما بالآخر[38]، و قوله تعالى:﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[39] فالزلزلة أيضا تقع قبل الغاشية، وقوله تعالى:﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[40]، فانشقاق القمر يقع قبل الغاشية لكونه علامة من علامات الساعة، ونستطيع أنْ نفهم تفاصيل تقع بعد الغاشية من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[41]، وقوله تعالى:﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾[42] فهذا وأشباهه ممَّا يحدث بعد البعث.

وفي الآية الكريمة ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[43] بيان بأنَّ الله تعالى خلق الإنسان، ولم يتركه سُدًى أي مهملاً، لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يكلَّف في الدنيا، ولا يحاسب بعمله في الآخرة، جاء ذلك في صيغة استفهام إنكاري، مثل الاستفهام الذي سبقه في فاتحة السورة، بقوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أنْ لن نجمع عظامه﴾[44]. إذ تقتضي الحكمة الإلهية العناية بالخلق والاهتمام به، كما تقتضي القدرة الإلهية فعل كل شيء.

وقد يفيد الاستفهام التبكيت والوعيد كما جاء في الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[45]. وفي بيان هذا الاستفهام يقول الألوسي: "والمراد يقول له عليه الصلاة والسلام: ﴿أَأَنْتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَ أُمّي إلهين مِن دُونِ اللهِ﴾ يوم القيامة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم بإقراره عليه الصلاة والسلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية وأمرهم بعبادته عز وجل"[46].

ويقول ابن عاشور: "تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: ﴿أأنت قلت للناس﴾ يدلّ على أنّ الاستفهام متوجّه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره مع أنّ الخبر حاصل لا محالة. فقول قائلين: اتّخِذوا عيسى وأمّه إلهين، واقع. وإنّما ألقي الاستفهام لعيسى أهو الذي قال لهم ذلك تعريضاً بالإرهاب والوعيد بتوجّه عقوبة ذلك إلى من قال هذا القول إنْ تنصّل منه عيسى، فيعلم أحبارهم الذين اخترعوا هذا القول أنّهم المرا د بذلك"[47].

وفي الآية الكريمة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[48]. فهي تتضمَّن استفهاماً يفيد التوبيخ، أي توبيخ علماءُ اليهود. إذ كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين: اثبت على الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل يريدون محمداً –صلَّى الله عليه وسلَّم– فإنَّ أمره حق؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه. كما كان الأحبار يحضّون على طاعة الله، و يأمرون مقلديهم وأتباعهم بإتباع التوراة، وكانوا يخالفونها ويواقعون المعاصي. وقالت فرقة: كانوا يحضّون على الصدقة ويبخلون... وقال بعض أهل الإشارات: المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني، وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها"[49].

وفي الآية الكريمة ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[50]، يأتي الاستفهام بالهمزة (أَوَكُلَّمَا)لإفادة الإنكار، أي: الإنكار عن يهود بني قريظة وبني النضير الذين عاهدوا رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم بعهود فنقضوها، وما كان ينبغي لهم فعل ذلك، كما يحمل هذا الاستفهام تسلية له صلَّى الله عليه وسلَّم، وإشارة إلى أنَّه ينبغي ألا يكترث بأمرهم هذا، والاهتمام به.

الخاتمة:

في خاتمة هذا البحث يمكن استخلاص جملة من النتائج أهمها:

1- استخدام الاستفهام للربط عند حصول انتقالات مباشرة، أو انعطافات حادة في مجرى الخطاب، سواء من جهة المعنيين بالخطاب، أو من جهة الانتقال من محور دلالي إلى محور دلالي آخر.

2- يؤدي الاستفهام في الخطاب القرآني أدوار تبليغية وفنية، من شأنها تقريب المسافات بين المحور المنتقل منه، والمحور المنتقل إليه في ذهن المتلقِّي.

3- من الخصائص الأسلوبية في السياق القرآني ما يلحظ من اقتران حسن التخلص بالتذييل في آن واحد، وهو إيذان باختتام محور دلالي والانتقال إلى محور دلالي آخر أو تمهيداً له.

4- في نظرية القراءة تعد السكتات ذات قيمة فنية خالصة، فمن خصائص النص الأدبي أنه يتيح للمبدع أن يسكت عن جملة من الأحداث، ويكون لها حضور دلالي على الرغم من غيابها عن المدونة.

5- من ميزات الخطاب القرآني أنَّه يترك مسافات فارغة للعقل، وهو فراغ بين البنيتين السطحية والعميقة تسمَّى بالفجوة، أو مسافة التوتُّر.

6- التهيئة النفسية تتطلب مساحة أوسع في العبارة، وتقبل تكرار الشرط والقسم والعطف عليها.

7- من المميزات التي ينفرد بها الخطاب القرآني أنَّه يستخدم الأداة المناسبة للتهيئة العقلية أو النفسية، وذلك باستخدام الحاسة المناسبة للحدث، ويحمِّلها مشتقاً بعينه.

هوامش البحث ومراجعه:

1- الخليل بن أحمد، العين، باب الهاء والميم والفاء معهما (ف،ه، م)، ج 61/4.

2- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير، وآخرون، دار المعارف، مادة (فهم).

3- الجرجاني، التعريفات، تقديم: إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب العربي بيروت،2002م، ص25.

4- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5 - ابن فارس، الصاحبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص292.

6- الصاحبي في فقه اللغة، 292، والبرهان في علوم القرآن 2/ 203.

7- ينظر: معجم الفروق اللغوية، ص 18.

8- البرهان في وجوه البيان، لابن وهب، ص94.

9- السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. (الطبعة الأولى، 1983م). ص 308.

10- حمدي الشيخ الوافي في تيسير البلاغة، المكتب الجامعي الحديث، ط- 2014 ص77.

11- سورة الفجر، الآيات1ـــ6.

12- سورة النازعات، الآيات1ـــ3.

13- سورة الرحمن، الآية 60.

14- سورة الصف، الآية 10.

15- سورة الشورى، من الآية 44.

16- سورة العلق، الآيات 9ـــ14.

17- سورة البلد، الآيات 1ـــ10.

18- سورة البقرة، من الآية 243.

19- سورة البقرة، من الآية 258.

20- سورة آل عمران، الآية 23.

21- سورة الماعون، الآية 1.

22- سورة الفيل الآية 1.

23- سورة الغاشية، الآية 17.

24- سورة يونس، الآيتان 34، 35.
25- سورة الشرح، الآية 1.
26- سورة الماعون، الآية 1.
27- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج 30/ 564.
28- سورة الغاشية، الآية 1.
29- سورة الإنسان، الآية 1.
30- سورة الماعون، الآية 1.
31- سورة العلق، الآيتان 9، 10.
32- سورة الفيل، الآيتان1، 2.
33- سورة الشمس، الآيات1ـــ 3.
34- سورة الانفطار، الآيات1ـــ 4.
35- طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 109، 110.
36- سورة الغاشية، الآية 1.
37- سورة التكوير، الآية 1.
38- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (كوّر). (مصدر سابق).
39- سورة الزلزلة، الآية 1.
40- سورة القمر، الآية 1.
41- سورة الواقعة، الآية 27.
42- سورة الشورى، من الآية 7.
43- سورة القيامة، الآية 36.
44- سورة القيامة، الآية 3.
45- سورة المائدة، الآية 116.
46- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: ماهر حبوش، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2010م.ج 7/ 492.
47- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 113/7.(مصدر سابق).
48- سورة البقرة، الآية 44.

49- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ج1/ 365.

50- سورة البقرة، الآية 100.